الفصل الثامن

دور الأسرة في تربية الطفل

تحديد وتوضيح:

عندما قرأت ورقة محاور هذه الندوة وحددت مساهمتي فيها، لفت نظري العنوان التالي: "دور الأسرة في تنشئة الطفل"، واستخدام كلمة تنشئة جعلني أبدأ بهذا التحديد.

- ✓ أنى أميل لاستخدام كلمة التنشئة في المصطلح التربوي الاجتماعي(التنشئة الاجتماعية) وهي برأينا جزء من التربية في العصر الحديث ونستخدمها نحن للدلالة على تلك القولبة التي يقوم بها المجتمع تجاه الفرد وفق تقاليده وعاداته وقيمه وتراثه الثقافي، إنها تطبع اجتماعي.
- ✓ أما التربية فهي برأينا ذاك العلم الذي يهتم بالنمو الشامل والمتكامل للفرد، جسدياً ونفسياً وعقلياً واجتماعياً.
- ✓ ولما كنا نعتبر أن دور الأسرة يتعدى التنشئة وفق المفهوم الذي حددناه، إلى التربية لذا استبدلنا العنوان السابق فأصبح (دور الأسرة في تربية الطفل).فاقتضى هذا التحديد والتوضيح للأهمية.

تمهيد:

اختلف الباحثون في تعريف الطفولة وتحديد نسبها. وقد جمع بعضها عبد السلام النوبي في كتابه المدخل لرعاية الطفولة يمكن العودة إليه وتذكر الكتب التربوية إن هذه المرحلة من عمر الإنسان لم تلق ما تستحقه من اهتمام إلا مطلع هذا القرن.

وإن كان بعض الفلاسفة والعلماء ، قد حاول ملاحظة أبنائهم وتسجيل بعض المعلومات عن تطور نموهم كما فعل العالم(داروين) الذي نشر عام 1877م مقال يدور حول ملاحظات سجلها خلال مراقبته لابنه (دودي) ، وكان الفيلسوف (ويليام بريير) في نفس الفترة تقريبا يدوّن ملاحظاته على ابنه بانتظام ثلاث مرات في اليوم وذلك منذ ولادته حتى سن الثالثة من عمره ونشرها عام 1881م بكتاب تحت عنوان (نفس الطفل) وكان (لألفرد بينه واختباراته عن الذكاء جهد مميز لقياس ذكاء الأطفال.

هذه المجهودان وغيرها حفّزت كريستمان عام 1893م لأن يطلق على ميدان هذه الدراسات مصطلح (*eologie(p* أي علم الطفل الذي برز فيه عدد من الرواد منهم جان بياجيه في سويسرا. وفالون في فرنسا وجيزيل في أمريكا. وبصدور شرعية حقوق الطفل بتاريخ 1959/11/20م بدأت مسيرة الاعتراف بالطفولة وحقوقها منحى جديداً. كان من نتيجته أن أصبح الطفل موضوعاً للدراسة في مختلف سنواته الأولى ، ومن عدة جوانب.

ونخلص إلى القول بأن الطفل أصبح محور التربية الحديثة ، فهو المنطلق وهو المحور، وهو الغاية على حد تعبير جون ديوي في كتابه (التربية والمجتمع).

أهمية التربية المنزلية:

بعد هذه الدراسات ظهر للجميع أهمية مرحلة الطفولة في عمر الإنسان وأهمية دور الأسرة في تربية أطفالها.

وكان بعض التربويين قد أكدوا على أهمية دور الأسرة أمثال بستالوتزي، وفرديل، وبرت، وكذلك علماء الاجتماع وعلماء النفس.

فالمنزل هو المؤسسة التربوية الأولى التي تحتضن الفرد طفلاً ويافعاً وشاباً، ويرسي الأسس لتفتح شخصيته، وفيه يتقرر مستقبله.

والتربية الحديثة تؤكد على أهمية التربية المنزلية في غرس الأسس السليمة، سواء من خلال علاقة أفراد الأسرة بالطفل كأن تكون هذه العلاقة تسلطية أو ديمقراطية أو فوضوية أو إهمالية، أو من خلال علاقة الطفل بالآخرين ، كأن يكون خائفاً أو متردداً ، أو متقلباً أو عدوانيا وفيه يتشرب المفاهيم وقواعد السلوك وفيه يأخذ وحدات القياس التي سيزن بها الأمور ويحكم على ضوئها.

وفيه يحب أو يكره بعض المبادئ كالحرية والتعاون والنشاط.... الخ.

ويتفق جميع الباحثين، على أن المنزل هو المكان الأفضل لتربية الأبناء وان دور الأم التربوي هو الدور البارز في حياتها وحياة طفلها.

الخيارات الصعبة:

ونلاحظ أكثر الأمهات الجديدات في وقتنا هذا أنها لا تحسن القيام بدورها على الوجه الأكمل تجاه طفلها لو اعتمدت فقط على خبرتها البسيطة ومعلوماتها العامة المستقاة من والدتها أو جاراتها، وان أكثر القواعد التربوية التي تربت عليها أو سمعتها ليست ثابتة، ويراجع في ذلك أبحاث ودراسات

MurphySmit, Resenblum, Barnstem, Kessen, StoneBell, Stern, Kennel, Lewis.

وفي أحسن الأحوال لا تستطيع استخدام هذه المعلومات إلا لمواجهة بعض المشكلات الآتية:

- ✓ كالعناية بنظافة المولود وتقديم وجبات الطعام له وتحديد أوقات نومه وغير ذلك وسرعان ما تكتشف إن الرعاية التي يحتاجها طفلها ليست هذه فقط، بل ستتغير احتياجاته بين شهر وشهر وبين سنة وأخرى ، وستتنوع كذلك لتشمل النواحي الجسدية والنفسية والعقلية والاجتماعية، فالتربية هي الرعاية الشاملة والمتكاملة للفرد.
- ✓ فهي أمام مخلوق جديد ، أقل ما يقال أنه كتلة من القدرات والاستعدادات الكامنة ، تنتظر النمو والنضج لتعبر عن نفسها، ترى ماذا تعرف هي عن هذه

القـدرات الكامنـة؟ ومـاذا عليهـا أن تفعـل لتسـاعدها علـى النمـو والنضـج والتفتح؟ وكيف تعرف أن معدل النمو هو المعدل المناسب لهذه الفترة أو تلك؟ وكيف تعرف حالة الصحة وحالة المرض؟

- ✓ وفي مرحلة أخرى كيف تفرّق بين ما هو مفيد له وبيم ما هو ضار به؟ وأي سلوك يجب أن تشجعه عليه وأي سلوك يجب أن تثنيه عنه، وأي سلوك يجب أن تتجاهله؟ وكيف تثنيه؟ هل بالمنع أو بالقمع أو بالإقناع؟ وكيف تدربه على العادات الجيدة، وكيف نحكم أن هذه العادات جيدة وغيرها سيئة.
- ✓ نلاحظ من هذه التساؤلات إن التربية لم تعد تلك الخبرة البسيطة التي تلقنها الأم لابنتها، بل أصبحت علماً يعلم وخبرة تكتسب ودوراً تعد له الفتاة إعداداً جيداً ونتذكر القول المأثور (إذا أردت أن تربي طفلاً فربي أمه قبل عشرين عاماً من ولادته) أو (تربية الطفل تبدأ قبل عشرين عاماً من ولادته).

الإشكالية:

إذا ما تلمسنا الأرض تحت إقدامنا، وتمعنا في العناصر الأساسية لمكونات تربيتنا المنزلية، نعجب لكثرة التناقضات التي تسيطر عليها، إنها مزيج غريب عجيب، يتعايش فيها المعاصر مع الحديث، مع القديم مع الفارق في القدم.

ومن هذا التعايش يتكون خليط، أقل ما يقال فيه انه بلا لون ولا طعم ولا رائحة، **وسنحاول حصر أسباب وجود هذا الخليط المتناقض بثلاث إشكاليات.**

أ- الإشكالية الأولى:

انعدام المنهجية الفكرية في تربيتنا، أو بالأحرى سيادة الغموض على منهجنا الفكري في ما يخص بناء الإنسان ، اللهم إلا إذا اعتبرنا غموض المنهج هو أيضا منهج تربوي.

قلت إن تربيتنا المنزلية خليط من عناصر متناقضة تلتقي فيها عناصر المنهج العقلي الذي يبدأ بالكليات وينتقل إلى الجزئيات وعناصر المنهج الواقعي أو التجريبي الذي يبدأ بالجزئيات وينتهي بقانون عام وعناصر المنهج التاريخي الذي يعود بالظاهرة إلى نشأتها وتطورها ، وعناصر المنهج النقدي الذي يبرز النقاط السلبية والنقاط الإيجابية الموضوع، ونتباهى بهذا المزج المقصود قائلين: أننا نختار ما يعجبنا وما يتماشى مع واقعنا بحرية، والحقيقة أن في هذا القول الجميل المبني على حرية الاختيار ظاهرياً جاذبية تخفي وراءها تشويش فكري خطير، نلبسه ثوب منهج جديد نسميه(المنهج الانتقائي) الذي يتداعى عند أول صدمة يتعرض لها وتظهر هشاشته عند أول مناقشة موضوعية له.

- إن اختلاط المناهج هذا، ليس بالمر البسيط إذ ينتج عنه اختلاط في المفاهيم واهتزاز في القيم وهذا يعني أن العناصر التي دعمت استقرار الأسرة العربية في الماضي والمتمثلة بوحدة المفاهيم والقيم انتفت الآن فاهتز استقرار الأسرة وأصبحت الرؤية إمامها غير واضحة ويصعب عليها تبني المفاهيم الجديدة التي تناقض جذورها، أو استبدال علاقات قديمة بأخرى عصرية.
- إن اختلاط المناهج هذا، ليس بالأمر البسيط إذ ينتج عنه اختلاط في المفاهيم واهتزاز في القيم وهذا يعني أن العناصر التي دعمت استقرار الأسرة العربية في الماضي والمتمثلة بوحدة المفاهيم والقيم انتفت الآن فاهتز استقرار الأسرة وأصبحت الرؤية أمامها غير واضحة ويصعب عليها تبني المفاهيم الجديدة التي تتناقض جذورها، أو استبدال علاقات قديمة بأخرى عصرية.
- إنها برأينا في مأزق تربوي، ما له الخيار القيمي الثقافي **وكأنني بها تطرح الأسئلة التالية**:

✓ وفق أي نسق قيمي أن شيء أولادي؟ وبالتالي وفق أي ثقافة؟ الخيار ليس نظريًا، بل واقعي، تطبيقي.

- ✓ إنها تتخبط في حالة اللاقرار، بين القديم والعصري، بين التقليد والتجديد، بين الإقتداء والاجتهاد، بين الثبات والتحول.

ب- الإشكالية الثانية:

تربية الطفل وفق مفهوم التربية: قديماً أم حديثاً؟

إن مفهوم التربية قديما يستند إلى مفهوم محدد للطبيعة الإنسانية الذي يقسم الإنسان إلى ثنائية الروح والجسد، ثنائية الخير والشر، ويكون دور التربية هو تنمية الجانب الخيّر، وتقييد جانب الشر وتجد في كتب التربية عرض مفصل لهذا المفهوم.

أما مفهوم التربية الحديثة، فهو يستند إلى مفهوم آخر للطبيعة الإنسانية مضمونه أن الإنسان مخلوق متطور يتكون من قدرات، واستعدادات كامنة، تعمل التربية على اكتشافها وتنميتها إلى الحدود القصوى.

ولكل مفهوم من هذين المفهومين دعائمه وأساليب هو أدوات هو أهدافه ، قد يكون الخيار النظري سهل ولكن التربية علم تطبيقي وعليه فالخيار في غاية الصعوبة أمام العارفين ، فكيف الحال أمام الآخرين؟

ج- الإشكالية الثالثة:

من خلال التدقيق والتمحيص في واقع الأسرة العربية عامة والليبية بشكل خاص لا أجد هناك مشكلة تسمى مشكلة تربوية، بل هناك ابعد من ذلك بكثير، هناك شيء ما، يمكن أن نسميه تخلف تربوي وهناك فرق بين المشكلة والتخلف.

- ✓ فالمشكلة التربوية توجد في كل المجتمعات المتقدمة منها والمتخلفة ، أنها موقف غامض يشعر بها عدد من الناس، فيسعون لحلها مختارين الأدوات والوسائل.

- ✓ أما التخلف فهو حالة ضبابية ، أو ظلامية ، انه السير وسط ليل دامس السواد، لا فرق بين مبصر وضرير، الكل يتلمس الطريق تلمساً ، الكل مكبل بسواد الليل، مقيد بسلاسل من القيود، بتراث من التقاليد ، بحبال من الأوهام.
- ✓ إنها حالة يشعر فيها الفرد انه على خير ما يرام، يرتدي ثوب القناعة وباطنه الكسل، قانع بحاله ومتمسك بوضعه، انه لا يشعر بتخلفه.
- ✓ ولو افترضنا أن قلة شعرت بالتخلف، لسبب ما نجدها أيضا تشعر بعجزها عن إيجاد حل.
- ✓ التخلف التربوي برأينا ، حالة تسبق المشكلة التربوية بزمن طويل وقد تستمر سنوات أو حقبات.
- ✓ أما حالة المشكلة فهي حالة متقدمة إنها مرحلة الوعي، وإذا عم هذا الوعي يسعى أصحابه لإيجاد حلول للمشاكل وتكون بعدها نهضة.
- ✓ وتستمر المشكلات بل وتكثر ، مع النهضة، وتستمر الحلول وتتنوع.
- ✓ إن حالة التخلف هي جمود وحد أدنى من التوتر أما النهضة فهي نشاط دائم وحركة دائمة والفرق بين الاثنين كالفرق بين سكون الجهل وقلق المعرفة، فالوعي الذي لا يرافقه سيرورة وحركة هو استمرار لحالة التخلف، هو وعي متخلف.

الخلاصة:

وخلاصة القول أن الأسرة في مأزق تربوي نتيجة لهذه الإشكاليات الثلاثة وإن معلومات الأسرة العربية عامة عن الطفل في الغالب مشوشة، قلقة مضطربة ومنهجها التربوي غامض ومشوش وخيارها ألقيمي متغير متذبذب، مضطرب، والعلاقة بين الأسرة والطفل تسلطية قمعية.... أمام هذه الحقائق كيف تنتظر أن تكون أجيالنا؟ فالأرض المتحركة لا تنبت أشجارا باسقة.

في ختام هذا البحث المتواضع نرى أن خطوات العلاج تبدأ باعتماد ما يلي:

أولا: إنشاء مركز أبحاث ودراسات الطفولة تخصص لها ميزانية سنوية لا نطمح أن تتجاوز ثمن دبابة حديثة.

ثانياً: إيجاد مراكز لرعاية الأطفال في الأحياء والقرى التي يشرف عليها تربويون وتقنيون لاستغلال وقت الفراغ عند الأطفال وذلك بتنمية مواهبهم وقدراتهم.

ثالثًا: التعاون مع المؤسسات الدولية التي تهتم بالطفولة (اليونيسيف) مثلاً ووضع برامج مشتركة تنفذ في جميع أنحاء البلاد.

رابعًا: توعية الأسرة لدورها التربوي عبر اللقاءات المباشرة وإيجاد برامج متنوعة عبر الإذاعتين المرئية والمسموعة(تلفزيون،راديو).

خامسًا: استبدال فلسفة علاقة الطفل بالجامع التي تقوم على ان الجامع مكان للصلاة وحفظ القرآن فقط بعلاقة جديدة تقوم على انه أيضا مكان للنشطات الاجتماعية والثقافية حتى والترفيهية.

obeikandl.com